المعارج واليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة

والعذاب الواقع يوم تكون السماء كالمهل والجبال كالعهن

(أقوال المفسرون في ذلك وبيان ضعفه)

قال تعالى في سورة المعارج من آية ١ إلى ١٨ (سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذي المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبرا جميلا إنه يرونه بعيدا ونراه قريبا يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ..إلخ).

قال المفسرون المعارج هي السماوات لأن الملائكة يعرجون فيها.

وقيل هي الفواضل والنعم لأنها تصل الناس على مراتب متفاوتة. وقيل هي الدرجات التي يعطيها الله في الجنة. وقيل هي مقامات معنوية تكون للناس حسب مراتبهم في الأعمال والسلوك.

وقيل مراتب أرواح الملائكة المختلفة في القوة والضعف وكثرة المعارف الإلهية وشدة القوة على تدبير هذا العالم.

واختلفوا أيضا في اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة فقال بعضهم هو يوم الحشر والحساب أي تعرج الملائكة إلى الله وتنزل في ذلك اليوم الذي يكون على الكافرين كأنه خمسون ألف سنة ولكنه يكون على المؤمنين أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا. وقال بعضهم هو يوم الدنيا كلها من أول خلقها إلى نهاية فنائها أي أنه لا بد في يوم الدنيا من عروج الملائكة ونزولهم وهذا اليوم مقدر بخمسين ألف سنة ولا يلزم من ذلك أن يصير وقت قيامة معلوما لأننا لا ندري كم مضى من الدنيا وكم بقي منها. وقال بعضهم أن ذلك تمثيل أي أن الملائكة والروح أي جبريل يعرج إلى الله إي إلى عرشه وإلى حيث تهبط منه أوامره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما يعده الناس بينهم أي يقطعون في يوم ما يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنة.

أقول وهذا هو أقرب تفاسيرهم لأن الملائكة والروح نور والنور أسرع ما يكون في الانتشار وأشد ما يمكن في السرعة فاليوم النوري قد يكون بمقدار خمسين ألف سنة غير نورية.

ما أفهمه في المراد من المعارج ومن الملائكة والروح

ومن اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة

أقول يحتمل أن يراد بالمعارج الأديان السماوية لأنها هي التي يعرج بها الإنسان إلى مراقي السعادة والفلاح فالله تعالى هو ذو المعارج أي صاحب الأديان السماوية ومنزلها على رسله. ومما يؤيد تفسير المعارج بالأديان كما نقول قوله تعالى في سورة المؤمن آية (١٥) (رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) فإن هذه الآية تشعر بما نقول لأن المعارج هي الدرجات المرتفعة فذو المعارج هو صاحب الدرجات الرفيعة وهو ذو العرش أي العرش الديني والملكوت السماوي وذلك بدليل قوله عقبها (يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) فإنها تدل على أن المراد من العرش ومن الدرجات الرفيعة ومن المعارج هي الأديان السماوية التي تلقى من الله على عباده ورسله لينذر بها يوم التلاق وبدليل قوله أيضا في صدر الآية (بعذاب واقع للكافرين) أي للكافرين بهذه الأديان التي هي المعارج وكل دين من الأديان له مدة تعرج فيها الناس بواسطته إلى مراقي السعادة والفلاح ثم يقفون فلا يعملون به ولا يرتقون ولا يعرجون بواسطته، فدين المسيح مثلا مكث الناس يعملون به نصف يوم أي مقدار خمسماية سنة ودين الإسلام مكث الناس يعملون به يوم كامل أي ألف سنة وهذا ما يفهم من قوله تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أي أن تدبير أمر الإسلام من السماء إلى الأرض وعروجه من الأرض إلى السماء يكونان في مدة ألف سنة لأن الناس بعد الألف سنة أصبحوا لا يعملون بدين الإسلام ولا يطبقون أعمالهم على أحكام القرآن كما هو مشاهد الآن وكما يقال (لم يبق من الدين إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه) ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث من أن القرآن سيرفع في آخر الزمان أي لا يعمل به وهذا لا ينافي أن الناس سيرجعون إلى العمل به في زمان المهدي الذي سيظهر لتجديد هذا الدين القويم وإعادته كما كان عليه من القديم كما تشير إلى ذلك الآية السابقة وهي قوله تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق) فإن تعبير هذه الآية بلفظ (المضارع) في قوله (يلقي) الموضوع للحال والاستقبال يفيد أنه يلقي الروح في المستقبل أيضا على من يشاؤه من عباده وهو مهدي آخر الزمان والمراد من الملائكة هنا الناس الصالحون الذين يعرجون إلى الله ويرتقون إليه بواسطة دينه أو يعرجون إليه بأرواحهم بعد موتهم ورفعهم من الدنيا والمراد من الروح روح العلم والدين الذي يرتفع من قلوب الناس ويعرج إلى الله أو يعرج إليه بموت أصحابه وهم العلماء والصالحون كما ورد في بعض الأحاديث وحينئذ فالمراد من مدة الخمسين ألف سنة التي تعرج الملائكة والروح فيها إلى الله هي مدة جميع المعارج أي مدة جميع الأديان من أولها إلى آخرها ولذلك عبر فيها بصيغة الجمع حيث قال (ذي المعارج) أي صاحب معارج الأديان التي تعرج وترتقي بها الملائكة من بني الإنسان أو يعرجون إلى الملك الديان.

قال المفسرون والمراد من العذاب المسؤول أن يقع بهم بلا دافع هو عذاب الآخرة يوم القيامة وقال بعضهم هو عذاب الدنيا الذي وقع بهم يوم بدر لأن الآية نزلت في النضر بن الحارث وقيل في أبي جهل وكلاهما قتل يوم بدر.
أقول وهذا القول الآخر هو أقرب بدليل قوله بعدها (فأصبر صبرا جميلا إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) أي أنه قريب بالنظر لكونه في الدنيا ولكنه لا يختص بعذاب يوم بدر بل يشمل كل عذاب للكافرين والمجرمين في الدنيا وفي المستقبل أيضا بسبب كفرهم وإجرامهم وفسوقهم وعدم اعتدالهم في أعمالهم فيقعون في عاقبة ما يعملون مما هو ضد المعارج أي مما هو مخالف للأديان السماوية فيكون هناك مناسبة قوية على تفسيرنا بين ذكر العذاب الواقع بهم وبين ذكر المعارج بمعنى الأديان وكأن الآية تقول أن العذاب من الله ذي المعارج أي صاحب الأديان لا بد وأن يقع على الكافرين بهذه الأديان التي ما أنزلت إلا لأجل أن يعرج الناس بواسطتها إلى مراقي السعادة والفلاح.
وجعل مدة الخمسين ألف سنة هي مدة بقاء العمل بالأديان أو الانقياد إليها أقرب للعقل من جعل هذه المدة هي مدة الدنيا من أول خلقها إلى نهاية فنائها الذي قوله المفسرون لأن الأرض قد مضى عليها أكثر من ألفي مليون سنة كما يقول علماء طبقات الأرض وقد تبقى نحو هذه المدرة أو أكثر منها، وحينئذ فكيف يكون عمر الدنيا الذي هو أكثر بكثير من عمر الأرض خمسين ألف سنة فقط. ولكن العمل بالأديان في الأرض أو الانقياد إليها قد تكون مدته خمسين ألف سنة أي من ابتداء إنزالها إلى انتهاء الانقياد والعمل بها إذ لا مانع من أنه سوف يأتي على الناس زمن يتركون فيه جميع ما يتعلق بالأديان والروحانيات ويشتغلون بالماديات الصرفة كما نرى علائم ذلك في هذه الأيام.
ويحتمل أن يكون المراد من مدة الخمسين ألف سنة هي المدة التي ما بين ابتداء الأديان إلى اختتامها بنبوة محمد الخالدة أي من ابتداء استعداد الإنسان للرقي الروحي إلى استكمال هذا الرقي بالإسلام وبتعاليمه الصالحة لجميع الأمم في كل زمن من الأزمان كما يصرح بذلك قوله تعالى خطابا للناس (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) وحينئذ فلا يحتاج الناس بعد دين الإسلام وتعاليمه إلى دين آخر وتعاليم أخرى وبذلك ينتهي نزول الملائكة والروح بالوحي وينتهي صعودها وعروجها المعبر عنه بالمعارج.
وعليه فلا مانع أصلا من أن تكون المدة التي ابتدأت الإنسان أن يخرج فيها من طور الحيوانية المحضة والهمجية التامة إلى طور التعقل والاستعداد لقبول الأديان السماوية هي خمسون ألف سنة تنتهي وتكمل بالإسلام الذي اختتم الله به سائر الأديان وعلى كل سواء قلنا أن انتهاء الخمسين ألف سنة تكون بانتهاء نزول الأديان وانتهاء صعود الملائكة والروح وعروجها أو تكون بانتهاء الانقياد والعمل بهذه الأديان الروحية والتمسك بالأمور المادية فإن ذلك يكون في الدنيا لا في الآخرة يوم القيامة كما يقول المفسرون.

فهم آخر لنا في المراد من اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة ومن اليوم الذي مقداره ألف سنة ومن اليوم الذي مقداره سنة

أقول إن مقادير هذه الأيام الثلاثة أنما هي بنسبة مقدار اليوم الذي نعرفه ونعد به الزمن الذي هو أربع وعشرون ساعة حيث قال تعالى (كألف سنة مما تعدون) وقال (في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) وحيث أن اليوم الذي نعرفه ونعد به الزمن الذي هو أربعة وعشرون ساعة إنما هو مقدار دورة الأرض على نفسها التي يتكون من الليل والنهار فقد أصبح لا مانع أن تفسر اليوم الذي هو سنة واحدة الوارد في بعض الكتب المقدسة بما هو مقدار دورة الشمس على نفسها أو دورة الأرض حولها التي يتكون منها الفصول الأربعة كما أنه أصبح لا مانع أيضا القياس على ما قدمنا في دورة الأرض والشمس أن نفسر اليوم الذي مقداره لف سنة بدورة إحدى الكواكب الأخرى التي قد تكون دورتها أوسع من دورة الشمس بألف مرة بحيث ينشأ عن دورتها هذه أمور أخرى طبيعية أو روحانية أعظم أ أكثر بألف مرة مما ينشأ عن دورة الشمس، وإن تفسير اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة بدورة إحدى الكواكب الأخرى العظيمة التي ينشأ عنها دورتها أمور طبيعية أو روحانية أعظم أو أكثر بخمسين ألف مرة من دورة الشمس مما قد يكشفها العلم فيما بعد كما اكتشفت ما ينشأ عن دورة الأرض والشمس.
ووجود كواكب في الجو أكبر من الشمس وأوسع مدارا يمثل هذه المقادير أو أكثر أمر لا يستبعده من له إلمام بعلم الفلك الحديث الذي أثبت أن هذا الجو لا نهاية له وأن فيه أفلاكا لا تحصى وإن منها ما هو أكبر من الشمس بملايين المرات وأوسع مدارا منها بملايين المرات..
سبحان خالق الأرض والسموات رب الشعري ورب العرش العظيم.
وعليه فتفسيرنا لهذين اليومين الآخرين أي يوم الألف سنة ويوم الخمسين ألف سنة بما ذكرناه هنا من أنها مقدار دوران بعض الأفلاك العظيمة هو تفسير معقول لأنه مقاس على شيء معروف لنا ومشاهد وهو يوم دورة الأرض المقدر بأربع وعشرون ساعة ويوم دورة الشمس المقدر بسنة واحدة، ولا مانع من قياس الغائب على الشاهد والمجهول على المعلوم كما أنه لا مانع أيضا من ترتب ونشوء كثير من الأمور العظيمة الكونية الطبيعية أو الروحانية على مقدار مدة دورات هذه الأفلاك العظيمة التي لها تأثير كبير في هذا الكون العظيم، فالله سبحانه وتعالى ما جعل مدة دوران بعض الأفلاك مقدار أربعة وعشرين ساعة،

وبعضها مقدار سنة، وبعضها مقدار ألف سنة، وبعضها مقدار خمسين ألف سنة. إلا لما يترتب على بعضها وسيكتشف بعضها الآخر على مدى الزمان وكل فلك بدورته الخاصة به قصيرة أم طويلة لم يكن وجوده بهذه الصفة عبثا ولم يخلق بهذه الكيفية لعبا، قال تعالى: (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي ما خلقناهما إلا لأسباب وأغراض حقيقية ولفوائد ومنافع محققة لا يعلمها أكثر الناس (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وبالجملة فإن تفسيرنا لليوم في قوله تعالى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) ولليوم في قوله: (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسون ألف سنة) بما ذكرنا في هذا البحث قد يكون له وجه معقول بالنسبة لتفاسير المفسرين خصوصا وأن في تفسيرنا إشارة ظاهرة إلى الأفلاك العظيمة التي اكتشفت حديثا وإشارة أيضا إلى دوراتها الطويلة المقدرة بألف سنة وبخمسين ألف سنة التي يترتب وينشأ عنها أمور كونية عظيمة طبيعية وروحانية كما قدمنا.
ثم قال تعالى: (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما) قال المفسرون: (المهل) هو دردي الزيت العكر أو هو القطران الأسود، (والعهن) هو القطن المنفوش أي أن السماء سوف تكون يوم القيامة ذائبة سائلة كالزيت أو القطران وأن الجبال سوف تكون يوم القيامة كالقطن المنفوش بحيث تطير مع الريح حتى تصير هباء منثورا وأنه في ذلك اليوم أي يوم القيامة لا يسأل قريب قريبه أو صاحب صاحبة عن حاله لابتلاء كل بما يشغله، وقيل لا يسأله أن يحمل عنه شيئا من أوزاره، وقيل لا يسأله شفاعة ولا نصرا له.

فهمان لنا في معنى قوله تعالى: (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما)

الفهم الأول هو أن المراد من كون السماء كالمهل أي أن جو العالم وسماءهم يكون في ذلك اليوم عكرا رديئا كما يقال (جو العالم اليوم مكفهر) وأن المراد من كون الجبال كالعهن هو أن عظام القوم وملوكهم وزعمائهم الذين هم كالجبال الراسخة يكونون متفرقين منحلين عن بعضهم البعض وكبراءهم كانحلال العهن لا تماسك بينهم كما هو حاصل الآن في الممالك العربية وفي كثير غيرها أيضا ولا شك أن هذا إنما يكون في الدنيا بعد عروج الأديان وملائكة الرحمن إليه تعالى حسب تفسيرنا المتقدم.
وقوله تعالى: (ولا يسأل حميم حميما) أي لا يسأل قريب قريبا أو صديق صديقا عن حاله لانحلال العصبية وقلة التراحم وعدم مبالاة بعضهم بما يحصل للبعض الآخر م نخير أو شر وهذا يكون في الدنيا أيضا بعد عروج الأديان إلى الله حسب تفسيرنا خلافا للمفسرين الذين يجعلون ذلك في الآخرة يوم القيامة.
وقوله تعالى (يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التي تؤويه ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه) أقول أي يبصرونهم الأمر ويوضح فهم الشأن الذي هم فيه والذي يوجب عليهم الاتحاد والتناصر ولكن المجرم لا يتبصر ويود أن يفتدي نفسه حينئذ من عذاب ذلك الوقت بكل أقاربه بل بكل من في الأرض لأجل أن ينجو بشخصه فقط بلا مبالاته بمن عداه، أي والأمة التي تكون أفرادها كذلك من محبة الذات والاختصاص بالمنفعة وحب الإضرار بالغير لا بد وأن يحل بها العذاب الواقع الذي ليس له دافع من الله ذي المعارج أي صاحب الأديان التي تعرج بالناس وترقيهم وتبين لهم كل ما ينفعهم وما يضرهم ولكنهم يخالفون هذه الأديان ولا يعملون بمقتضاها فيحل بهم ما يجب أن يحل. ويقع بهم ما يلزم أن يقع مما لا يريد الله أن يدفعه عنهم لاستحقاقهم له.
ويدل على ما أقوله قوله تعالى بعدها (كلا إنها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى) أي أن لظى العذاب تدعو من أدبر عن الدين وتولى عن العمل به وجمع أموال الدنيا فأوعاها ولم يبذلها فيما أمر الدين أن يبذلها فيه من الجهاد وغيره وهذا مما يشعر بأن المراد من المعارج معارج الدين وإن لم يقل بذلك أحد من المفسرين.
الفهم الثاني أن يكون المراد من اليوم في قوله تعالى (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) أي اليوم الذي تظهر فيه الطائرات وقاذفات القنابل المتفجرة والقنابل الذرية والصواريخ الضخمة النارية المدمرة في المساء حتى تصبح المساء من جراء ذلك كالمهل أي كاللهب الأحمل أو كالشيء المذاب من الحرارة واليوم الذي تكون فيه الجبال كالعهن أي كالقطن المتناثر من جراء الديناميت والمفرقعات والدبابات ونافثات اللهب ومن القنابل الذرية والإيدروجينية التي اخترعت حديثا والتي تحلل الجبال والأبنية والأشجار والإنسان وسائر الحيوانات والنباتات إلى ذرات هوائية بحيث تجعل كل ما تتناوله هباء منثورا كما حصل ذلك سنة ١٩٤٥ ميلادية في بعض المدن اليابانية في هذه الحرب العالمية.
وهذا اليوم هو الذي يفر المرء فيه من أمه وأبيه ويود أن يفتدى من عذابه ببنيه وصاحبته وأخيه ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه من هذه اللظى النزاعة للشوى التي تدعو من أدبر عنها وتولى لسعة دائرة تأثيرها بحيث لا يمكن أن ينجو منها مدبر ولا مقبل.
وقد يكون هو اليوم الذي كان العرب وقت نزول هذه الآية يرونه بعيدا ويراه الله قريبا وإنه هو يوم العذاب الواقع الذي ليس له دافع مما حصل شيء منه في أيامنا هذه وسيحصل منه في المستقبل ما هو أشد وأعظم بسبب هذه القنابل الذرية ونحوها وهذا حاصل في الدنيا أيضا بعد عروج الأديان إلى الله حسب تفسيرنا المتقدم ولكن حصوله في الدنيا حسبما بينا في هذين الفهمين لا ينافي أصلا حصول ما هو أكثر منه وأنكى في الآخرة أيضا يوم القيامة. وعلى كل فالله أعلم بمراده.